

اتقاد العقل والعاقل والمعقول

د. زهرا مصطفوي^{*}
ترجمة: هدى بيضائي

التعقل بحسب رأي ملا صدرا هو حضور العقول والصور النورية المستقلة عند العاقل، ولكن التعقل بحسب رأي ابن سينا هو حصول الصور العقلية والمفهوم للمعقول عند العاقل، لذا إن كانت نظرية الاتحاد متفقاً عليها من قبلهما، فإن أحدهما يعتقد باتحاد النفس والصور المعقولية بمعنى ارتقاء النفس إلى عالم العقول والاتحاد مع الجوادر العقلية المستقلة والأخر يعتقد باتحاد النفس مع التصورات والتصديقات والمفاهيم العقلية الموجودة في النفس.

المقدمة:

عندما نبحث عن جذور مسألة اتحاد العقل والعاقل والمعقول نجدها في كلمات تلامذة أرسطو، المشهور أن بعد أرسطو شيع هذا الكلام بين الحكماء مثل الإسكندر وفرفوريوس ومن ثم تلامذته.

وقد فسرت نظرية الاتحاد بتفاصيل عدّة مثل: واتحاد العاقل مع العقل الفعال، واتحاد العاقل مع المعقول، واتحاد المدرك مع المدرك،... وما شابه.

وهذه النظرية مقبولة في اليونان من قبل حكماء مثل أفلاطون^(١) وفي الحقبة الإسلامية نجد إشارات لها في كلمات المعلم الثاني أبي نصر الفارابي.^(٢) وفي نفس الوقت نجد أن صدر المتألهين قام بشرح وتفسير وتتفقيح هذه النظرية ورسخ أساسها. وقد ذكر^(٣) أن مسألة الاتحاد بين العاقل والمعقول لم تجد حلًّا عند أي من حكماء المسلمين حتى زمانه، ولا نجد في كتب المسلمين مطلبًا مهمًا في شرح هذه النظرية. وهو توجّه بالتفاة خاصة إلى مسبب الأسباب وطلب الكرامة منه، فشمله الإلهامات الإلهية وشمله الله تعالى بفضله وكرمه وأعطاه من خزائن علمه علمًا جديداً، حتى فتح للمتّأخرین ما كانوا قد حرموا منه وكان وفقاً على سابقین.

وفي المقابل أنكر ابن سينا بشدة هذه النظرية، وقد اعتبر قول فرفوريوس حشوًّا وزائداً جملة وتفصيلاً. ويدرك أن فرفوريوس مهووس ويطمح في رئاسة المشاء ويطلق كلاماً جزاً. لا يفهمه لا هو ولا غيره من علماء المشاء الذين اعترفوا بأنهم لم يفهموا شيئاً من كلامه. ولكن حب الرئاسة وطلب الجاه يمنعه من الاعتراف بالخطأ.^(٤) على كل حال ما يجب التدقّيق فيه، هو ما استخلصه الحكيمان المسلمان، ابن سينا وصدر المتألهين من هذه النظرية. ونأمل في إطار هذه الدراسة أن يصل القراء المحترمون إلى مقاييس دقّقة بين رؤى الفيلسوفين اللذين ترأساً مذهبين في الفلسفة ودراسة الاستدلّالات والإشكاليات التي طرحتها كل من الحكيمين على نظرية الآخر.

192

التعقل

معنى التعقل:

إن الفهم الصحيح لمبحث اتحاد العاقل والمعقول مرتبط بمعرفة معنى التعقل. وحقيقة التعقل بمعنى العلوم والإدراك العقلي مشتركة بين الإنسان وبقية الموجودات، ولهذا يجب أن تكون دراسة هذه الحقيقة بطريقة تشمل التعقل الإنساني بالإضافة إلى تعقل بقية الموجودات. بالتأكيد سيتم شرح هذا في مكانه والإشارة إلى أن

الموجودات المادية غير المجردة، لا تحظى بهذا الكمال الوجودي وهي عاجزة عن هذا الإدراك.

وأيضاً يجب الالتفات إلى أنه لما كان التعقل أحد فروع العلم فيجب أن يُعرف تعريف يراعي تعريف العلم. ولهذا تعرض صدر المتألهين في كتاب الأسفار^(٥) في بداية مبحث اتحاد العاقل والمعقول لنظريات الفلسفية حول العلم وأخضعمها للنقد والتدقيق.

وبشكل إجمالي يقول صدر المتألهين في تعريف العلم^(٦): العلم من الحقائق التي تكون ماهيتها عين إنيتها وهذه الحقائق لا يمكن تعريفها بحدٌ أو رسم؛ لأنها ليس لها جنس أو فصل حتى تعرف بالحد. وليس هناك شيء أعرف من العلم ليعرف به، بل هو من البديهيات الواضحات التي تحتاج إلى بعض التبيهات والتذكيرات للوصول إلى الإدراك الصحيح لها.

ويقول الشيخ الرئيس بشأن التعقل:

"كل صورة أدركها فإنما أدركها إذا وجد مثالها في".^(٧) إن النفس تعقل، بأن تأخذ في ذاتها صور المعقولات.^(٨)

لهذا، التعقل في نظر ابن سينا، هو حصول صورة المعقول عند العاقل وهو يعتبر صدق هذه النظرية في الباري عز وجل أيضاً. بالطبع لابن سينا نظريات متفاوتة في كيفية حصول صور المعقول في نفس العاقل.

ويُفهم من بعض كلماته أن نفس العاقل بتجريد الصور من المادة وعوارضه ولوافق المادة، تخرج من مرحلة الحس والخيال والوهم وتصل إلى مرحلة العقل. يستفاد من بعض عباراته أن نفس العاقل بالاتصال بالعقل الفعال، تكتسب الصور المعقولة من فيض العقل الفعال، وسوف نشرح هذا الأمر بشكل أكبر.

لكن صدر المتألهين يقول بخصوص التعقل:

"والتعقل هو إدراك الشيء من حيث ماهيته وحده".^(٩)

من ثم يكمل في يقول: التعقل بحاجة إلى تجريد، التجريد من المادة وعوارضها ولوافقها، ويشرح: التجريد يكون بأخذ العلم من المواد؛ أي بعد الإحساس بالشيء وبوجوده، يجب تجريده من المادة، فيحصل فيما علم جديد. من ثم بتجريد عوارض ولوافق المادة، مرحلة جديدة من العلم، الذي يسمونه التعقل. ولكن لو كان الموجود ذاته عقلاً فلا حاجة إلى التجريد، بل النفس بواسطة وجود تلك العقول تصبح عالماً عقلياً.

ويذكر صدر المتألهين في كيفية اكتساب العلوم العقلية: "فالحق أن صور الجوادر العقلية من معاني تلك الحقائق، وذرات تلك الجوادر. هذا يعني أن صور المحسوس من كل جسم هي الجوهر الحسي له، والصور العقلية لذلك الجسم هي المعنى الجوهرى والعقلى له".^(١٠)

ومعأخذ مباني ملا صدرا بعين الاعتبار يمكننا الفهم وبسهولة أن مقصوده من معنى الجوهر العقلي وصورة الجسم العقلي ليس الصورة الذهنية أو التصورية، بل المقصود هو الصورة العقلانية المستقلة مثل النوري الأفلاطوني. وبعقيدة ملا صدرا، التعقل معنى درك الصور العقلانية والجسم المستقل، كما عبر في عبارة له: "النفس عند إدراكها للمعقولات الكلية، تشاهد ذاتاً نورية مجردة".^(١١)

مقارنة بين الفيلسوفين:

وعلى هذا الأساس يكون التفاوت بين ما ذكره صدر المتألهين وابن سينا في حقيقة التعقل هو عبارة عن أن التعقل في عقيدة ابن سينا بمعنى درك مفاهيم الحدود وماهيات الأشياء على نحو الوجود الذهني وحصول صورة الأشياء في موجود مجرد، سواء أكان العقل أم النفس.

والتعقل في عقيدة ملا صدرا يعني مشاهدة الحقائق والصور الحقيقية المجردة عن المادة ولو احتجها التي هي متحققة بنحو مستقل.

وفي رأي ملا صدرا أن العلم هو حضور وجود المدرك عند المدرك، وجوداً خالصاً لا يشوبه عدم أو فقدان. ولهذا فإن الأشياء المادية وغير المجردة لا يمكن أن تتعقل أو تصل إلى حقيقة التعقل؛ لأنها ممزوجة بالعدم والفقدان دائماً، بل يرى أن العلم عبارة عن وجود بشرط أن لا يكون هنالك حجاب، والمادة والعدم والنقص تعتبر مواطن للعلم وحجاب عليه.

طريقة تحصيل الصور العقلية:

مما ذكرنا من عبارات ابن سينا، نصل إلى استنتاجين من التعقل: الأول، التعقل عن طريق التجريد، والآخر التعقل عن طريق الاستفاضة والاتصال بالعقل الفعال.

وفي رأي صدر المتألهين التعقل يستحصل فقط عن طريق ارتقاء النفس ودرك الذوات المجردة، لا عن طريق الاتصال بالعقل الفعال وأمثاله.

نظريّة التجريد التام:

يقول ابن سينا: تعقل النفس يعني دركها للصور المعقوله بالتجرد عن المادة.

والصورة المعقولة على نوعين: إما مجردة بشكل ذاتي عن المادة، وفي هذه الحالة لا تتبدد النفس عناء تجريد تلك الصورة، وإما أن العقل هو الذي يجرد تلك الصورة عن المادة.^(١٢)

ويشرح بأنه عندما يحس الإنسان بوجودِ ما، يأخذ صورة المحسوس من الوجود الخارجي، لكن بنحو محتاج للمادة. إضافة إلى لواحق تلك الصورة. وفي حين التخيل، يأخذ الصورة دون المادة ولكن مع لواحق المادة ومع أنه في حين توهم الصورة يدركها دون المادة ولو احتجها، ولكن لارتباطهما كمصدر بالمادة لا يمكن للزمن أن ينفصل عن لواحق المادة بشكل مطلق؛ لأنه في كل الصور يتصور تلك المفاهيم كعارض على المادة مع أنها غير مادية.

ولكن في حين التعقل، تأخذ النفس الموجود الذهني والصورة العقلية، مجردة من جميع لواحق المادة وتعقلاً لها وهذا التجريد التام يوجب التفاوت بين التعقل وسائر الإدراكات.^(١٣)

نقد نظرية التجريد:

انتقد ملا صدرا، وفي موضع عده، هذه النظرية بشدة ويقول: إن المشهور بين الحكماء هو أن النفس تتزعز صورة المحسوسات من المادة وتجردها وعندما ينتهي هذا التجريد يحصل التعقل.

ويفسر ملا صدرا هذه النظرية بطريقة كأن النفس ساكنة وثابتة والحركة والتغيير تقع في الأشياء، بمعنى أن الصور المحسوسة تتغير فيقع التجريد والنفس دائماً هي المدرك فقط.

ويشير إشكالية: لو كان الأمر على هذا النحو، لكان على الجوهر النفسي الإدراك دون ارتباط بالصور العقلية؛ لأنه لا ارتباط بين الصور العقلية والنفس، والنفس لو أدركت موجوداً مغايراً لها، غير مرتبطة بها، يكون العلم إضافة فقط؛ لأنه بين موجودين مستقلين غير مرتبطين لأنه لا يصح إلا مقوله إضافة، في حين أن مقوله إضافة في مبحث العلم أمر لا يقبله الفلاسفة.

إذاً ارتباط الصورة العقلية بالنفس، يلزم من أن النفس مادة تلك الصور وأنها متحدة معها، ولكن القائلين: بهذه النظرية ينكرون تغيرات النفس واتحادها بالصور المعقولة.

لهذا تجريد الصور المحسوسة للحصول على صور معقولة أمر محال، ويجب تفسير التعقل بشكل آخر بحيث تكون الأشياء ثابتة والنفس متغيرة؛ أي أن العوالم

متعددة والنفس تتحرك من عالم إلى عالم، ولها إدراك حسي في عالم المحسوسات وإدراك عقلي في عالم العقول.^(١٤)

نظريّة الاتصال بالعقل الفعال:

الطريقة الثانية للتعلق في كلام ابن سينا هي الاتصال بالعقل الفعال، حيث يقول: يوجد جوهر مفارق في عالم الوجود، وصور المعقولات بالذات موجودة في ذلك الجوهر؛ لأن هذا الجوهر عقلي بالفعل وليس له حالة الإمكان وعندما تتصل النفس بهذا الجوهر العقلي، تترسم في النفس صور عقلية خاصة تصل النفس إليها عن طريق إدراك الجزئيات.^(١٥)

وعلى هذا الأساس النفس بإدراكيها الجزئيات تكسب الاستعداد للاتصال بالجوهر المفارق العقلاني، وحاصل هنا الاتصال، ارتسام صور عقلية في النفس. وعندما تتجه النفس مرة أخرى إلى عالم الحس، ثمّحى تلك الصورة العقلية، كما أنها لو التفت إلى صورة عقلية أخرى ثمّحى الصورة العقلية الأولى.

قد تطرق ابن سينا في مبحث النفس من كتاب "الشفاء" بشكل واسع لدراسة هذه النظرية وهناك يقول: النفس الإنسانية عاقلة بالقوة وتقدر أن تكون عاقلة بالفعل ولكن هذه العقلية لا تحصل من تقاء نفسها، بل تحتاج إلى علة كي توصلها من حالة القوة إلى حالة الفعل. وهذه العلة هي أمر خارج من النفس وهي أعلى منها وهي العقل.

ومن الواضح أن هذه العلة يجب أن تكون عقلاً بالفعل، كي يوجد بينها مبادئ صور الأشياء ولكي تتمكن من إعطاء تلك الصور إلى النفس وهي العقل الفعال.^(١٦)

ويذكر ابن سينا في بيان التفاوت بين هذه النظرية ونظرية تجريد الصورة من المادة: عندما تطلع القوة العاقلة على الجزئيات وتدرك الجزئيات الموجودة في الخيال، ومن جهة أخرى ينعكس العقل الفعال على هذا الإدراك، تُجرد الجزئيات من المادة ومتصلقاتها وتنتفع في النفس الناطقة. وليس المقصود أن النفس تنتقل من الخيال إلى التعقل، بل المراد هو أن النفس بالاطلاع على هذه الجزئيات، تستعد لإفاضة هذه الصور المجردة من العقل الفعال عليها؛ أي أن الفكر وترتيب القياسات تسبب في أن النفس تتمكن من قبول الفيض ومن ثم يذكر بأن نفس الإنسان لا يصبح معقولاً بالفعل بل عقلاً فقط.

ويقول: عندما تكون النفس فعالة بواسطة الإشراكات، يحصل بينها وبين الصور العقلية نسبة وفي النفس ترسم الصورة، وتكون من جنس النفس من جهة، ومن جهة

أخرى لا تكون من جنس النفس.

فمن جهة أنها مجردة فهي من جنس النفس، ولكن من جهة أنها معقولة بالفعل فهي تختلف عن النفس؛ لأن الخيالات التي هي معقولات بالقوة، بواسطة هذا الإشراق والاتصال تصبح معقولات بالفعل، ولكن الخيالات تبقى بنفس تلك الصورة ويستحصل منها على الصور التي تبدل إلى العقل الفعال فقط، لا نفس الخيالات. لذا النفس قابلة والصور العقلية فيها مجردة.

النقطات الثلاث المشتركة بين الحكيمين:

إن من الضروري في هذه المقالة، الإشارة ولو باختصار إلى الوجوه المشتركة بين ابن سينا وملا صدرا في مبحث التعقل، كي نتمكن من خلال هذه الوجوه المشتركة، فهم الاختلاف بشكل أفضل.

١- تجرد العقل:

العقل باعتباره قابلاً للصور المعقولة أو باعتباره متحدداً مع الصور المعقولة، يجب أن يكون مجرداً؛ لأن المعمول غير القابل للقسمة مجرد، لهذا يجب أن يكون العاقل مجرداً عن المادة، وهذا يعني أن لا تعقل في عالم الأجسام.^(١٧)

٢- تجرد المعقول:

برأي الحكيمين إن الصور العقلية والمعقولات مجردة عن المادة ولو احتملها، وإن التعقل لا يشمل الأمور الجزئية أو المادية أو الأمور المشوهة بلواحق المادة. إذ إحدى شروط التعقل هو أن الإدراك ينحصر بالأمر غير المادي والمجرد التام.^(١٨)

٣- نفس، عاقل بالقوة، عاقل بالفعل:

بعقيدة الحكيمين النفس الإنسانية الوجود المجرد، يمكنه التعقل وهو عاقل بالقوة، وعندما يتتعقل يصبح عاقلاً بالفعل. لهذا يقع التغيير في النفس ويوصلها من كونها بالقوة إلى كونها بالفعل. وبحسب رأي الشيخ الرئيس، يحصل هذا الأمر بواسطة الاتصال بالعقل الفعال. وبحسب رأي صدر المتألهين يحصل بواسطة الاتحاد بين المثل النورية والعقول المفارقة والصور النوعية المفارقة.^(١٩)

معنى اتحاد العقل والعاقل والمعقول:

بعدما عرضنا نظرية ابن سينا وملا صدرا في معنى التعقل يجب الإشارة إلى مسألة الاتحاد، وتوضيح المقصود من هذه المقوله وتبين وجوه الاختلاف والاتفاق بين

الحكيمين في هذه النظرية.

من المعروف أن صدر المتألهين هو من المدافعين عن نظرية الاتحاد، وابن سينا من المنكرين لهذه النظرية، ولكن في الوقت نفسه، قد ذكر بعض الأساتذة المحترمين في درس الاتحاد، أن نظرية الاتحاد متفق عليها وأن الفلاسفة الإسلاميين لم يفهموا عبارات الشيخ الرئيس الذي يقبل نظرية الاتحاد.^(٢٠)

ولأجل توضيح نظريات ابن سينا وصدر المتألهين وتبيين: هل كان هنالك خلاف بين هذين الفيلسوفين الكبارين في نظرية اتحاد العقل والعاقل والمعقول أم لا؟ يجب الالتفات إلى عدة نقاط مهمة منها النقاط المشتركة بينهما.

وكما بینا في بداية هذا المقال، إننا لو قبلنا أن ابن سينا يقبل نظرية اتحاد العاقل والمعقول ولكن قراءته ورؤيته إلى هذه النظرية تتفاوت مع رؤية صدر المتألهين إليها ولهذا لا يمكن أن يقال بالتوافق في هذه المسألة.

وجوه الاشتراك:

١- اتحاد العقل والمعقول:

يقول ابن سينا في كتاب "النجاة": إن العقل هو تجرد المعقولات من المادة ولو أواهها^(٢١) أي المعقولات المجردة والصور العارية من المادة هي المعقول. وتجرد هذه الصور والمعقولات هو العقل. ومن حيث إن تفاوت المعقولات المجردة وتجرد المعقولات أمر اعتباري وفي عالم الخارج لكليهما حقيقة واحدة. لهذا فإن العقل والمعقول في رأيه متهدان كعقيدة صدر المتألهين.

ويقول في قسم آخر من الكتاب: إن القوة العاقلة التي تكون صور الموجودات ثابتة فيها، إما صور تلك الموجودات التي حصلت بتجريدها من المادة، أو صور الموجودات التي لم تكن مرافقة للمادة من البداية، ولم تكن مادية أصلاً.^(٢٢)

وهذه المطالب هي شواهد على أن رأي الشيخ الرئيس هو أن العقل والمعقول متهدان.

وفي شرح هذا المطلب نقول: بأن المعقول اصطلاحاً يقسم إلى قسمين: المعقول بالذات والمعقول بالعرض. المعقول بالعرض موجود خارجي تدركه النفس وتحصل عليه بواسطة الصور الذهنية الحصورية. ولا شك في أنه لا يوجد أحد يدعى بأن المعقول بالعرض يتحد مع العقل والعاقل عدا السفسيطائيين الذين ينكرون الحقائق الخارجية. المعقول بالذات هو الصورة الذهنية والموجود الذي بوجوده تتعقل النفس، ولا شك في

أن هذه الصورة الذهنية تحصل في العقل ولا اختلاف بينها وبين التعلم وأن المقصود من مبحث اتحاد العاقل والمعقول هو هذا المعمول بالذات.^(٢٣)

٢- اتحاد علم الباري تعالى بذاته:

أحد وجوه الاشتراك بين ابن سينا وصدر المتألهين هو أن الباري تعالى عالم بذاته وعلمه بذاته، عين ذاته ولا تكثر في ذاته بهذا الإدراك، وهنا يتعدد العقل والعاقل والمعقول.

وقد عبر الشيخ الرئيس عن هذه النظرية بطرق متفاوتة في كتب مختلفة، وهذا دليل على اعتماده على هذه النظرية واستدلالاتها وهو يقول: "إنه ذاته عقل وعاقل ومعقول".^(٢٤)

ومن ثم يشرح ويسقط هذه الجملة، بأن المقصود هو اتحاد علم الباري تعالى بذاته؛ لا علم الباري بغيره. وابن سينا لإثبات هذا المدعى يذكر أدلة أخرى لا نذكرها خشية الإطالة.^(٢٥)

٣- اتحاد في علم الموجودات بالذات:

يشير الشيخ الرئيس ضمن أداته لإثبات نظرية الاتحاد في علم الباري بداية إلى هذه الملاحظة أن هذه الخصوصية ليست مختصة بواجب الوجود، بل هي تشمل كل الموجودات المجردة العاقلة والمعقولة، وأن لديها علمًا بذاتها وفي هذا الإدراك العقل والعاقل والمعقول واحد.

ويقول: "النفس تتصور ذاتها، وتصورها ذاتها، يجعلها عقلاً وعاقلاً ومعقولاً".^(٢٦) ويدرك لإثبات مدعاه أن ما يمنع التعقل هو المادة ولو احتجتها، وأن المادة تمنع من أن يكون الشيء معقولاً، وأيضاً تمنع أن يكون الشيء عاقلاً. ولهذا العاقل موجود مجرد تحقق له ماهية مجردة والمعقول يعني الماهية المجردة لشيء. وإذا كان الشيء مجرد فهو معقول؛ ولأنه متتحقق في ذاته إذاً المعقول هو ذاته وهو العاقل أيضًا؛ لأن الماهية المجردة حاضرة. إذاً كل مجرد عقل وعاقل ومعقول، وهذه المفاهيم الثلاثية لا يحصل لها أي تكثير حقيقي.^(٢٧)

رؤيه الشيخ الرئيس لنظرية الاتحاد:

وتتضح حقيقة الخلاف بين ابن سينا وصدر المتألهين في مبحث الاتحاد، وفي البداية لا بد من توضيح المراد من اتحاد العاقل والمعقول، وهل للفيلسوفان نقاط القاء في إدعاءاتهم؟

ففي هذا المبحث طرح ابن سينا نظريتين ودافع عنهما. الأولى إثبات الاتحاد والأخرى إنكار الاتحاد، يقول الشيخ حسن زادة أملبي: إن الشيخ الرئيس كأكثر الحكماء المشائين يقول بالاتحاد. لذا سندرس عبارات ابن سينا في هذا المجال حتى مقصوده من اتحاد العاقل والمعقول فهو في مقام الإنكار يقول: "ما يقال من أن ذات النفس تصير في المعقولات، فهو من جملة ما يستحيل عندي".^(٢٨)

ويذكر في مكان آخر: "أن قوماً من المتتصدرين يقع عندهم أن جوهر العاقل إذا عقل صورة عقلية صار هو هي".^(٢٩)

وهو يقول: إن البعض قالوا: إن النفس حين تعقل تتصل بالعقل الفعال، وهذه النظرية صحيحة؛ لأن النفس باتصالها بالعقل الفعال وإدراك الجزئيات والاستعداد لإدراك الكليات، تتقبل الفيض من العقل الفعال. وترسم في النفس صور المعقولات، ولكن قال البعض: إن اتصال النفس بالعقل الفعال هو على نحو الاتحاد؛ أي أن النفس تتبدل إلى عقل فعال وهذا قول باطل.^(٣٠)

ويقول ابن سينا في شرح الاتحاد: إن تبدل الشيء إلى شيء آخر يكون على ثلاثة أقسام:

الأول: أن الشيء يتبدل من حالة إلى أخرى ويسمى بالاستحالة.

الثاني: أن الشيء من يتركب مع موجود آخر فتحصل على موجود ثالث مركب.

الثالث: أن الشيء من دون الاستحالة والتركيب يتحول إلى شيء آخر. وهو يقول: إن مدعي القائلين: باتحاد العاقل والمعقول هو من القسم الثالث وهذا القول كلام شعري وغير معقول.^(٣١)

ويقر الشيخ الرئيس في كتاب "المبدأ والمعاد" بدليل الاتحاد دون إنكاره، وفي هذا الكتاب يذكر نتيجة القول بالاتحاد على هذا النحو: إن نسبة الصور العقلية مع العقل بالقوة، ليست كنسبة الصور الطبيعية إلى هيولى الطبيعة، بل عندما تصل الصور العقلية في العقل بالقوة، يتحدد ذاتها ولن يكون هناك شيئاً القابل والمحبوب (لهما ذات متمايزة)، بل في حقيقة العقل بالفعل تلك الحقيقة المجردة هي المعقوله.^(٣٢)

وبهذا يتضح مقصود ابن سينا بجلاء في مبحث اتحاد العاقل والمعقول، أن الصور المعقوله هي العقل بالفعل، والعقل بالقوة، بإدراك صور معقوله وارتسامها في العقل بالقوة تتبدل إلى العقل بالفعل.

وبالالتفات إلى هذه العبارة واستباط الشيخ الرئيس من مسألة اتحاد العاقل والمعقول واستدلاته في كتاب (المبدأ والمعاد) نطرح هذه الإشكالية بأن من الممكن أن

يكون ابن سينا قد بدأ آراءه في هذا البحث فأنكر الاتحاد في بعض كتبه وأثبته في كتب أخرى.

ويجيب الخواجة نصير الدين الطوسي على هذه الإشكالية أن ابن سينا كتب كتاب (المبدأ والمعاد) في شرح مذهب المشائين وقد ذكر هذه النكتة في مقدمة الكتاب.^(٢٣) فهو يذكر في مقدمة الكتاب: لقد كتبت هذا الكتاب على أساس ومباني آراء الحصليين المشائين وأسعي في طرح المشكلات والنكات وشرحها وبسطها وتفصيل المجمل.^(٢٤)

وقد أظهر صدر المتألهين ترددًا في قبول حقيقة وقوع استبصار لابن سينا وإشراق نور من الملائكة له. وقبوله باتحاد العاقل والمعقول؟ أما العبارة في كتاب (المبدأ والمعاد) كتبت على أساس الوعد الذي ذكر في مقدمته بأنه سيداري ويراعي نظريات الحصليين المشائين.

يشير الأستاذ حسن زادة آملي إلى عبارات أخرى عدة للشيخ الرئيس يقول فيها بصراحة بنظرية الاتحاد، ويقول: إن عدم تدقيق الفلسفه في هذه العبارات سبب إدراج ابن سينا مع منكري هذه النظرية وتلك العبارات هي:

- الكمال المختص بالنفس الناطقة، هو تحولها إلى عالم عقلي، ترسم فيه صور كل شيء ويكون فيه النظام المعقول ويوجد فيه الخير الذي يفيض من المبدأ الأول على الجواهر الشريفة الروحانية، ومن ثم الجواهر المتعلقة بالأبدان، ومن ثم الجواهر الجسمانية. على نحو تكون في النفس الناطقة هيئة كل شيء، وتبدل إلى عالم العقل يجب أن يكون بموازاة عالم الوجود ويتحدد معها ويرسم في النفس مثالها.^(٢٥)

- إن شدة وصول النفس إلى كمالها الخاص هو حصول المعقولات وهذا غير قابل للقياس مع وصول باقي الموجودات إلى بعضها؛ لأن الوصول في الموجودات يحصل بواسطة السطوع. ويسري هذا الوصول في كل وجود النفس وكأنه الصورة المعقولة بدون أي انفصال، ولذا العقل والعاقل والمعقول أمر واحد أو قريب منه.

٣- كمال جوهر العقل هو ما يتجلّى فيه نور الحق بقدر ما يمكن، ثم يتمثل فيه كل الوجود بالشكل الذي هو عينه مجرد من المادة، فيبدأ من الله ويتم بالجواهر العقلية وينتهي بالجواهر الروحانية المادية والأجرام السماوية. من ثم يصبح هذا التمثل على نحو لا يمكن التمييز بينه وبين الذات العاقلة وهذا الكمال هو جوهر العاقل الذي يدل إلى الجوهر العقلي بالفعل.^(٢٦)

ويذكر الأستاذ آملي أن المقصود من (تمثلاً لا يتميز عن الذات) هو أن يكون تمثل

المعلوم للعالم على نحو لا يكون أي تميز بين العالم والمعلوم، بل يكونان متolidين.^(٣٧) ولهذا معأخذ هذه العبارة بعين الاعتبار، يمكننا أن ندرج الشيخ الرئيس بين القائلين: بنظرية العاقل والمعقول. مع أن المشهور بين الفلاسفة أن الشيخ مخالف لهذه النظرية. ولكن على أي حال يجب الالتفات إلى أن نظرية الاتحاد عند صدر المتألهين تختلف عن ما نقل حتى الآن عن ابن سينا.

أنواع الاتحاد:

قام صدر المتألهين في مباحث مختلفة بالتحقيق في أنواع الاتحاد. مثلاً كما ذكر الرئيس في إلهيات الشفاء بأن اتحاد المادة والصورة، والاتحاد التركيبي، والاتحاد بين الجوهر والعرض هي من أنواع الاتحاد.^(٣٨) ولكن في مبحث الاتحاد يشير إلى ثلاثة أنواع للاتحاد،^(٣٩) ويدرك بأن نوعين من الأنواع الثلاثة محالة:

- الموجودان يتعدان على نحو أن الموجودين يشكلان موجوداً واحداً ولا شك في أن هذا النوع من الاتحاد محال والشيخ الرئيس أيضاً يقيم أدلته على بطلانها.^(٤٠)

- المفاهيم أو الماهيات تصبح مفهوماً أو ماهية واحدة على نحو يمكن حملها على بعضها بالحمل الذاتي الأولي. مثلاً مفهوم العاقل هو مفهوم المعقول وهذا النوع من الاتحاد لا شك في أنه محال؛ لأن المفاهيم المتقابلة لا يمكن أن تتبدل إلى مفهوم واحد أو يتبدل أحدهما إلى الآخر. وفي الحمل الذاتي مفهوماً الموضوع والمحمول مفهوم واحد ولكن يختلفان من جهة الإجمال والتفصيل.

نعم من الممكن أن نجد موجوداً واحداً بسيطاً يصدق عليه أنه عاقل وأيضاً معقول؛ أي وجود واحد ومعان متکثرة. ولكن ليس هذا تكثير جهات الوجود. يذكر الرفيعي القرزويني في شرح هذا الأمر: "القسم الأول، اتحاد المعاني والمفاهيم المختلفة في الوجود، بمعنى أن شيئاً أو عدة أشياء مختلفة من جهة المعنى والتصور في مقام الوجود والتحقق، تحول إلى موجود واحد. والاختلاف بينهما فقط بلحاظ التصور؛ أي إمكان تصور كل منها على حدة، وهذا القسم من الاتحاد ممكن وواقع مثل اتحاد الجنس والفصل في النوع، فيختلفان في المعنى والمفهوم مثل معنى الحيوان والناطق اللذين لهما وجود واحد في مقام الوجود في الإنسان ويفترقان في المعنى".

ومثل صفات الكمالية والحق تعالى جلت أسماؤه التي هي عين ذات الباري مثل العلم والقدرة والحياة حيث تختلف في المفهوم ولكن تجتمع وتتعدد في وجود الباري عز وجل. ويمكننا القول: بأن الباري تعالى عين العلم وعين القدرة وعين الحياة.^(٤١)

جـ - الموجود يتغير ويتبديل على نحو تصدق عليه ماهية أو مفهوم كلي بعددما لم يكن

يصدق عليه؛ لأن الموجود استكمال وتكامل وجوده وعلى إثر هذا التكامل تصدق عليه مفهوم خاص.

يقول ملا صدرا: هذا القسم من الاتحاد صحيح وممكن، بل واقع في الخارج. مثلاً يجتمع في الإنسان الواحد جميع معاني الجماد والنبات والحيوان. ولتوسيع هذا القسم من كلام ملا صدرا يجب الرجوع إلى عبارات الأستاذ رفيعي قزويني؛ لأنه لم يتضح في كلام ملا صدرا أن هذا القسم من الاتحاد هو اتحاد بين مازاً أو مازداً؟ وهل المقصود اتحاد الماهية أو المفهوم مع الوجود المتكامل؟ أم أن المقصود اتحاد الوجود المتكامل مع الوجود الناقص السابق، كما يستفاد من مثاله.

يقول القزويني: "القسم الثالث، هو اتحاد أمرتين يقعان في طول بعضهما البعض؛ أي أحدهما ناقص الوجود والأخر هو الصورة الكاملة له. يكتمل بواسطته ويعرف النقص عنه ويخرج من القوة إلى الفعل. كالطفل الذي يصبح شاباً، والجاهل الذي يصبح عالماً، والعاجز الذي يصبح قادرًا؛ وخلاصة ما يقال عن الاستكمال والترقي هو القسم الثالث.

اختلاف الاستنتاجات:

١- من جهة المعقول:

قد بينا أن التعقل عند ملا صدرا هو حضور المعقول والصور النورية المستقلة عند العاقل. ولكن التعقل بحسب ابن سينا هو حصول الصور العقلية والمفهوم للمعقول عند العاقل. لذا إن كانت نظرية الاتحاد متفقاً عليها من قبلهما فأحدهما يعتقد باتحاد النفس والصور المعقولة بمعنى ارتفاع النفس إلى عالم العقول والاتحاد مع الجوهر العقلية المستقلة، والأخر يعتقد باتحاد النفس مع التصورات والتصديقات والمفاهيم العقلية الموجودة في النفس. لهذا فإن الإنسان بحسب ابن سينا يقدر أن يكون عالماً عقلياً مشابهاً للعالم الخارجي ولكن ملا صدرا يرى أن النفس تتدد مع عالم العقول.

٢- من جهة كيفية الاتحاد:

يرى صدر المتألهين أن النفس بإدراكها الجزيئات يمكنها الارتفاع بالحركة الجوهرية والوصول إلى عالم العقول ومشاهدة الذوات النورانية في عالم العقول، والاتحاد معها. ولكن يرى الشيخ الرئيس، أن النفس تتدد مع الصور الذهنية فقط عن طريق تجريد الصور من المادة وعوارضها. ويقول في كتاب «المبدأ والمعاد» الذي طرح فيه نظرية الاتحاد ودافع عنها: إن العقل يأخذ صور المعقولات ويجريدها عن المادة وعوارضها ويدرك المعنى الكلي والم المشترك.^(٤٢)

٣- من جهةبقاء ذات العاقل:

يرى صدر المتألهين، أن النفس في حركتها التكاملية تتحدد مع العقول وتتحرك من عالم إلى آخر وهذه الحركة الاستكمالية في النفس باقية من جهة، ومتغيرة من جهة. كباقي الحركات الجوهرية المتحركة بسبب اتصال الحركة، والباقي لأصالحة الوجود، وفي ذات الوقت متغيرة وتنتقل من مرحلة إلى أخرى.

ولكن يعتقد الشيخ الرئيس أن النفس باقية ولا يطرأ أي تغيير في جوهرها، مع حصول بعض التغييرات فيها؛ لأن هذه التغييرات تحصل بإشراق نور العقل الفعال في القوة العاقلة بالنفس، والقوة العاقلة للنفس تصبح عالماً عقلياً بواسطة حصول صور الأشياء فيها ولكن ذات النفس باقية. فهذا الاتحاد بين القوة العاقلة للنفس يعني العقل والصور العقلية لا بين النفس والصور العقلية.^(٤٢)

٤- من جهة استحالة أو تغيير جوهر النفس:

الشيخ الرئيس وبسبب إنكاره لحركة الجوهر، يرى الاتحاد بمعنى الاستحالة؛ أي أن النفس مع التغيير في كيفيةها وهي حصول صور المعقولات فيها، تتحدد مع العالم العقلي وتحتفظ في النفس هيئه العالم الخارجي.

لأنه وكما أوضحنا فإن الاتحاد هو بمعنى تغيير الشيء وتبدلاته إلى شيء آخر، وينكره ابن سينا بدون تحقق الاستحالة أو التركيب والامتزاج.^(٤٤)

وقد أيدَ ابن سينا هذه النظرية في المباحث التي أثبت فيها اتحاد العاقل والمعقول بواسطة حصول صور الموجودات في القوة العاقلة للنفس. فلهذا، النظرية التي يؤيدها الشيخ الرئيس تختلف عن تلك النظرية التي يؤيدها صدر المتألهين.

الخاتمة:

ومن المناسب في نهاية هذه المقالة أن نذكر عبارة لصدر المتألهين في قبول ابن سينا لنظرية اتحاد العاقل والمعقول.

فهو يقول: إنه لو استبصر الشيخ الرئيس واتجه نحو نظرية الاتحاد (مع ما أعطاه ملا صدرا لهذه النظرية) يجب أن يتخلّى عن كثير من مبانيه الفلسفية ويدرك بعض تلك المبانى:

- ١- وقوع الحركة في الجوهر.
- ٢- كثرة المفارقات المضمرة.

٣- وقوع متعددين تحت مقوله الواحد النوعي، بدون تعلقهما بالمادة.^(٤٥)

ويجد المتخصص بأنه في توضيح كلام ملا صدرا يمكن الإشارة إلى موارد أخرى

يحتاج الشيخ الرئيس إلى قبولها لو أراد أن يقبل نظرية الاتحاد بحسب رؤية ملا صدرا.

فيجب أن يقبل نظريات جديدة في الفلسفة ويعدل عن مشهور الحكماء ومنها:

- ٤- وحدة حقيقة الوجود.
- ٥- التشكيك في حقيقة الوجود.
- ٦- إن النفس جسمانية الحدوث ولديها مراتب مختلفة.
- ٧- إن هيولى الشخصية الواحدة ليست عدديّة.
- ٨- العلم حضوري فقط.
- ٩- العلم فوق المقوله.

الهوامش:

- ١- أفلوطين، أثولوجيا، ص ٥٠ .
- ٢- الدعاوى القلبية، ص ٩ .
- ٣- ملا صدرا، الأسفار، ج ٢، ص ٢١٢ .
- ٤- المصدر نفسه، ص ٢٢٥ .
- ٥- ابن سينا، الإشارات والتبيهات، شرح الإشارات والتبيهات، ج ٢، ص ٢٩٣، و الشفاء، الطبيعيات، النفس، ٢١٣ .
- ٦- ملا صدرا، الأسفار، السفر الأول، المرحلة العاشرة، ج ٣، ص ٢٧٨ به بعد.
- ٧- ملا صدرا، الأسفار، ج ٢، ص ٢٧٨ .
- ٨- ابن سينا، التعليقات، ص ٧٩ .
- ٩- ابن سينا، الشفاء، الطبيعيات، النفس، ص ٢١٢ .
- ١٠- ملا صدرا، الأسفار، ج ٣، ص ٣٦١ .
- ١١- ملا صدرا، الأسفار ج ٣، ص ٣٠٥ و ٣٠٧ .
- ١٢- ملا صدرا، الشواهد الربوبية، ص ٢٢ .
- ١٣- الأسفار، ج ٣، ص ٤٤٧ .
- ١٤- ابن سينا، الشفاء، الطبيعيات، النفس، ص ٢١٢ .
- ١٥- ابن سينا، النجاة ، ص ٣٤٧ .
- ١٦- ملا صدرا، الشواهد الربوبية، ص ٢٤١ إلى ٢٤٣ .
- ١٧- ابن سينا، الإشارات والتبيهات، شرح الإشارات والتبيهات ج ٢، ص ٣٦٤ .
- ١٨- ابن سينا، الشفاء، الطبيعيات، النفس، ص ٢٠٨ و راجع ابن سينا، عيون الحكمة ج ١، ص ٣٢ .
- ١٩- ابن سينا، الشفاء، الطبيعيات، النفس، ص ٢٠٩ .
- ٢٠- ملا صدرا، الأسفار، ج ٢، ص ٤٧٠، وابن سينا، النجاة، ص ٣٥٦ .
- ٢١- ملا صدرا، الأسفار، ج ٢، ص ٣٦٠، وابن سينا، النجاة، ص ٣٤٤ .
- ٢٢- ملا صدرا، الأسفار، ج ٢، ص ٣٧٠، وابن سينا، الشفاء، الطبيعيات، النفس، ص ٢٠٨ .
- ٢٣- انظر: حسن حسن زاده آملي، اتحاد العاقل والمعقول، الدرس الأول، الحذور التاريخية للبحث.
- ٢٤- ابن سينا، النجاة، ص ٣٦١ .
- ٢٥- ابن سينا، النجاة، ص ٣٤٨ .
- ٢٦- راجع: الشهيد مطهرى، الشرح المبسوط للمنظومه، ج ٢، ص ٣٤ و ٣٥ و ملا صدرا، رسالة في المظاهر الالهية في أسرار العلوم الكمالية (مطبوع في حاشيه المبدأ والمعاد، ملا صدرا)، ٢٥٥، وابن سينا، المباحثات ص ٢٠٦ .
- ٢٧- ابن سينا، النجاة، ص ٥٨٧ .
- ٢٨- راجع: ابن سينا، الشفاء، الإلهيات، ص ٣٥٧ و التعليقات، ص ٧٩ .
- ٢٩- ابن سينا، الشفاء، الطبيعيات، النفس، ص ٢١٢ .
- ٣٠- رجوع كنيد به ابن سينا، الشفاء، الإلهيات، ص ٣٥٧ و التعليقات، ص ٧٩ .
- ٣١- ابن سينا، الشفاء، الطبيعيات، النفس، ص ٢١٢ .
- ٣٢- ابن سينا، الإشارات والتبيهات، شرح الإشارات والتبيهات، ص ٢٩٣، ج ٢، ص ٢٩٣ .
- ٣٣- المصدر نفسه، ج ٢ .

- ٤٣- المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٥ .
- ٤٢- ابن سينا، المبدأ والمعاد، ص ١٠ .
- ٤١- نصير الدين الطوسي، شرح الإشارات والتبيهات، ج ٢، ص ٢٩٢ .
- ٤٠- ابن سينا، المبدأ والمعاد، ص ١ .
- ٣٩- ابن سينا، الشفاء، الإلهيات، ص ٤٢٦، والنجاة، ص ٦٨٦ .
- ٣٨- ابن سينا، الشفاء، الإلهيات، ص ٢٦٤ .
- ٣٧- ابن سينا، المبدأ والمعاد، ص ١ .
- ٣٦- المصدر نفسه .
- ٣٥- ابن سينا، الإشارات والتبيهات، شرح الإشارات والتبيهات، ج ٢، ص ٢٤٥ .
- ٣٤- حسن زاده آملي، العاقل والمعقول، ص ٢٢ .
- ٣٣- راجع: ملا صدرا، حاشية إلهيات الشفاء، ص ٢١٢ و ابن سينا، الشفاء ، الإلهيات، مقالة ٥ ، فصل ٧ ، وملا صدرا، الأسفار، ج ٥، ص ٢٠٢ .
- ٣٢- راجع: ملا صدرا، الأسفار، ج ٣، ص ٢٢٥ ، واتحاد العاقل والمعقول، فصل ٣ .
- ٣١- راجع: ابن سينا، الشفاء، الإلهيات، ص ٧٦ و ملا صدرا، الأسفار، ج ٢، ص ٩٧ .
- ٣٠- رفيعي، اتحاد عاقل به معقول، ص ٨ .
- ٣٩- المصدر نفسه، ص ٩ .
- ٣٨- ابن سينا، المبدأ والمعاد، ص ١٠٢ و ١٠٢ .
- ٣٧- المصدر نفسه، ص ١٠٤ و ١٨٩ .
- ٣٦- ابن سينا، الإشارات والتبيهات، شرح الإشارات والتبيهات، ٣: ٢٩٥ .
- ٣٥- راجع: حسن زاده، اتحاد العاقل والمعقول، الدرس الثاني.